المداحون وحي الكنانة

بقلم
شريف الراس

اريد في هذا المقال ، ان اتحدث عن ظاهرة جديدة في الفن الشعبي العربي اعتقد انها تجربة جريئة ورائعة في حركة بعث هذا الفن الغنائي وتطويره ، واعتقد انها علامة هامة في طريق المحاولات الفنية العديدة المتعاقبة لاشك في انها تحمل من الخصوبة وطاقات النمو واصالة الابداع مايجعلها تلعب دورا حاسما في تاريخ نهضتنا الفنية الحديثة .. هذه الظاهرة هي مايصح ان نسميه « فرقة المداحين » التي كونتها وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم الجنوبي وعهدت بشؤونها ورعايتها للفنان الاستاذ زكريا الحجاوي .

واحب قبل الحديث عن هذه الفرقة ، ان اعرض وجهة نظر الدولة العربية بالفنون الشعبية من خلال عبارة قالها السيد ثروت عكاشة ذات يوم : « ان الاهتمام بفنوننا الشعبية جزء من العناية بمقومات شخصيتنا ، فهي صورة من طبيعة شعبنا توارثها على مر الزمن حتى رسبت في اعماقه وانطلقت على لسانه حكما وامثالا ، وأغنيات والحانا ، كما ظهرت في مجموعة رقصاته . بل ان هذه الفنون اخذت طريقها الى انتاج الشعب فأفضت عليه طابعا خاصا يميز شخصيته .. والذين يبنون للمستقبل ينبغي عليهم الا يتجاهلوا هذه المقومات والعناصر ، فعليها يستند البناء ، ويعتمد التطور » .

ولقد قامت في الاقليم الجنوبي عدة محاولات للاستفادة من كنوز اغانينا الشعبية وتطويرها واخراجها اخراجا عصريا ، وكانت بعض هذه المحاولات تقوم بتشجيع من الدولة وتحت رعايتها ، على ان خطر « الانحراف والاجتهاد وتقليد الغرب والاقتباس » انزلق بتلك المحاولات الى حافة الفشل ، لانها لم تكن غير تشويه عصري للفنون الشعبية ، ولم يعجب الفئات المثقفة الذواقة من جهة ، ولم يلاق صدى لدى الفئات الشعبية المعاكسة لاصول هذه الفنون من جهة اخرى . وهذا ماعرف الاستاذ الحجاوي كيف يتحاشاه ويتجنبه .

ولنبدأ من القرية ، حيث يجب ان نبدأ ..

*

على صفحة النيل الخالد تنعكس الاف الاضواء ، ويمر قطار طويل فوق الجسر ، وترسو مراكب شراعية حد الشاطىء لينقذف منها مئات الفلاحين ، وتتزاحم السيارات الكبيرة والصغيرة في مداخل القرية ، ثم يتدافع من احشائها رجال ونساء واطفال « هاقد وصلنا دسوق » .. ويقف القطار لاهثا عند المحطة ، وتتسابق الوف المخلوقات الساذجة نحو القرية .. ثمة بنات ونساء وملايا ورائحة عرق ، وسلال فوق الرءوس ، واطواق من الخرز ، وحلي زجاجية ومعدنية ، وكهول وشبان

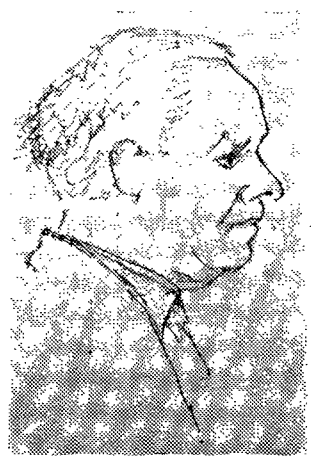

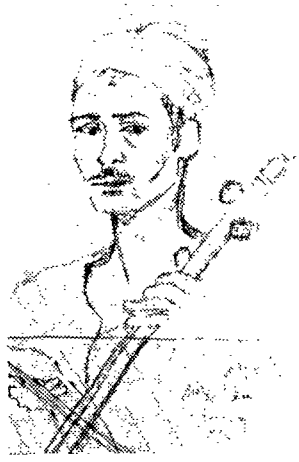

الاستاذ زكريا الحجاوي — الفنان متولي السيد حجاج

*

وعمامات وجلابيات وحزم من قصب السكر وازدحام هائل ورائحة سمك الفسيخ تتسلل من شقوق القفة فوق الرأس « انه مولد عظيم ، انظري ، كل مصر جاءت لتحتفل بمولد سيدي ابراهيم الدسوقي » ... وترسو مراكب اخرى وتعود قطارات وتتزاحم عند ابواب القرية سيارات جديدة « سبعة ايام بلياليها » .. ويحشر الناس بعضهم في الازقة ويتراصون ويتدافعون ويتزاحمون وقد يضحكون ، وبعض الاطفال يركضون وامرأة تبيع قصب السكر ، واخرى تسوي لطفلها مهدا من ملاءة وقش حد خيمة غاصة بالناس . وشيخان يتباريان في لعبة العصا «التحطيب» وأمرة تشوي سمك السردين ، وحوانيت كثيرة تبيع كل شيء ، ورجل يلعب الثلاث ورقات ، وصراخ وضجيج ودخان شواء اللحوم والاسماك يندمج بدخان الحمصة ثم ينتشر على شكل ضباب روائحي شفاف ليلف المحشر كله ويخلق وحدة في احساسات الخياشيم ..

وتمتد في الشارع ذاته كهوف الخرافة وتنتصب خيام اهل الطرق الصوفية .. كل خيمة اضخم من الاخرى واوسع واعلى وفي كل خيمة مذياع مكبر صوت هائل ، وعلى السارية علم اصحاب الطريقة ، وفوق المدخل لافتة طويلة مكتوب عليها موجز لخوارق هذه الطريقة ومبزاتها . وزعيق مكبرات الصوت يتلاطم ، والتفوق للاقوى . وشاب ذو حنجرة منشارية ينشد في صدر الخيمة ، ورجال كثيرون يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال بحركات دوخانية هوجاء يظنونها ذكرا وطريقا للمشاعر الصوفية ، ورائحة بخور رخيص وزيت الفلافل والرجال الذاكرون يزاودون عددا ويزدادون في رقصهم النواسي عنفا وضراوة . والشاب

ذو الصوت المنشاري يصرخ ـ يغني ـ والميكروفون في يده : « صلوا على نور النبي ... الف الصلاة عليك يا نبي » وعازف الكمان وضارب الرق يلاحقانه بما يشبه الالحان ، والمطرب يتمايل مع المتمايلين ، ويلاعب صوته، ويقعره ويرفق ويهبط به ، والذاكرون يلهثون حقا ويفرقون بعرقهم . وقد تتصادم رؤوسهم بعنف ـ وهنا تتضح فائدة طاقية اللباد ـ . وشيخ غطى صدره بعشر مسابح او عشرين ، قبع وراء الجوقة يقشر باسنانه عقدة من قصب السكر ، والمطرب يختطف منه العقدة ويكمل تقشيرها ـ نهشا ـ ويمتصها ويرميها دون ان يتاثر الموقف او يترجرج . فالذكر ما زال لاهبا ، والجميع دائخون او متداوخون . ولذلك فان احدا لا يهتم بانحراف الصوت المنشاري صوب « اسمر يا اسمراني » ثم تعريجه على « نار يا حبيبي نار » او « عالدوار » وما اشبه ذلك فالضجيج يمحو كل خطيئة . ومكبرات الصوت تفتك ببعضها رغم الانوار الساطعة في كل مكان .. وفي الخيمة المجاورة لم تنصب حلقة ذكر ، وانما تراص الناس جالسين وواقفين يستمعون الى مطربة ذات انف رفيع وطويل وعوينات دائرية واسعة وصوت فثراني ، ويصرخون اعجابا كلما حط بها ضيق النفس عند محط صوتي.. والمطربة تنشد مدائح نبوية لا يعلم الا الله مدى علاقتها بالموضوع .. وشاب يقذف بنفسه نحو الميكروفون ليعلن بانه وضع رسول الله شفيعا بين يدي المطربة المحترمة كي تظل تنشد وتغني حتى مطلع الفجر ..

ووراء الخيمة انتصب سيرك ، وسيرك اخر، ولعبة الموت ، ولافتات عجيبة عن الساحر الذي يقطع المرأة نصفين ويلصقها مرة اخرى ، والساحرة السورية ذات المعجزات الخارقة ، وفتيات شبه عاريات يرقصن على ابواب السيرك وتحت لافتات لعبة الموت والساحر . ومخزن كبير يدعو الناس لشراء عمامة من الورق الملون مزينة بصورة فاتن حمامه او طرزان « للتبريك » .. وصراخ ومحشر وتعب وروائح وضياع وحضيض وتدويخ للانسان البسيط وحزام يشد مواطن القرن العشرين ، من رقبته، الى افتك ما في عهود الانحلال المعتمة من مخترعات تبديدية لئيمة ، وبكاء وانهيار واوساخ ، وطفل يقف اني شاء ، فيرفع ذيل ثوبه ويبول ..

ههنا يتجمع جمهور مسرح فرقة المداحين التي يرعاها زكريا الحجاوي.

*

ساحة الحوادث ذاتها بعد عام .. والمحشر ذاته .

على ان الفنان الذي كان فيما مضى من الايام يقف ويتألم ويتفرج اصبح اليوم فعالا جزئيا .. انه يريد ان يحمي كل هذه الجماهير من سموم الماضي التي استشرت في الدم حتى بلغت حدود الادمان الاعمى، ويريد ان ينقذ هذه الجماهير من شلل الموت في الخرافات ، ويريد ان يبعث ما في النفوس من حرية وعفوية وفعالية وانطلاق . انه يريدان يمحو خمسمائة عام سوداء من حياة الريفيين وينتقل بهم الى دنياهم الواقعية حيث القرن العشرون ، وحيث المواطن المنتج الواعي ، وحيث معركة تحرير العرب وتوحيدهم.. وهو ، بعد ، يريد ان يحقق كل ذلك من خلال الفنون الشعبية : اللغة الوحيدة التي تدخل القلوب هنا بحب وفرح.

ولهذا انشأ زكريا الحجاوي ، بتكليف من وزارة الثقافة والارشاد القومي ، فرقة من الفنانين الشعبيين الذين احترفوا التجوال في الارياف لكسب العيش عن طريق الغناء في الافراح والموالد والمناسبات الشعبية الاخرى. وضم اليهم لفيفا من الخبراء في شؤون المسرح والموسيقى والاراجوز والرقص الشعبي ، وتناول هذه الكفاءات كلها بالصقل

الفنان حجاج السيد حجاج

الفنانة عيشة الملاح

*

والتهذيب . واخضعها لضروب من التمرين والتدريس والتعليم ، وزودها بمؤلفات جديدة من الاغاني والاناشيد ومقطوعات الاوبريت . ثم اخذ يطوف بفرقته في الارياف وبين المدن ، ويحط الرحال في الموالد ذات الظهر الديني ، التي اعتاد الناس الاقبال عليها اقبالا شديدا ، وهناك يختار ساحة فسيحة ينصب فيها مسرحه .. وما ان تغرب الشمس حتى تفض الساحة الفسيحة بالناس ، بالوجوه الجائعة ذاتها ، جالسة متراصة حول بعضها ، وتظل العيون معلقة بالستارة ساعة او ساعتين . ثم تزاح الستارة عن مجموعة من المداحين والمداحات « روح الكنانة » بلباسهم الريفي المعهود ، والاتهم الموسيقية المألوفة ، حيث يفتتحون الحفلة بنشيد الجمهورية :

يا جمهوريتنا العزيزة ... رددي
بالوحدةفي عيدها نشيدهاالامجدي
وبلدنا ما فيها شيدخيلولا معتدي
يا دنيا فيعيد العربقومي اشهدي
رجع لنا مجد الزمان الغابر

عيد العرب عيد الكرامة والسلام
ورايتنا علقناها في طرف الحسام
ودخلنا دور العمل مش في الكلام
والنصر ويانا ما دام فينا الامام
وعدو الاستعمار رئيسنا جمال

من الخليج العربي ... للمغرب
وحده جمعها ناصر حول المطلب
يا نموت كرام يا نعيشسادات الملعب
العربي في السلم شهم وطيب
وفي الغضب ما يحترب بمحال
يا رب بارك للعرب بالعز وحدتهم
صبحكم كتير بجمال من بعد وحدتهم

أنا منية البلد يا دنيا ظاهري
اعيش واموت فدا بلادي الطاهره
صحيح انا مولود في قلب القاهره
لكن ولاد عمي بدمشق الظافره
وعيلتي من بغداد وتونس ظاهره
وطني عروبتي والتاريخ الغالي

هذا النشيد الذي يفتتح به كل حفل ، يصح ان يؤخذ كنموذج لما تقدمه فرقة الحجاوي من مقطوعات غنائية اخرى ، ما ان نسمعها حتى نعيش في اجواء التراث الموسيقي الشعبي العريق . فالحجاوي لم يؤلف الحانا جديدة ، ولم يضع من عنده موسيقى جديدة ، وانما اكتفى بتناول مجموعات الالحان الشعبية العريقة ، ذات الجذور الراسخة في كل النفوس ـ مهما كابرنا ـ وذات الصدى الحلو في القلب ، السهلة على السمع واللسان ، ثم ملأ هذه التكوينات الموسيقية بمحتوى غنائي جديد ، ومنظومات كلامية جديدة. ثم ان هذا المحتوى الغنائي الجديد الذي ينشده المداحون والمداحات ليس جديدا بالمعنى المتعارف عليه لدى مؤلفي الاغاني اليوم ، فهو من حيث المضمون لا يعبر عن تجربة فردية او انفعال شخصي عابر ، بل هو يعبر عن تجربة جماعية ، وتدفق تيار الحياة لدى امة تعاني فرحة البعث وآلامه .. وهو من حيث النسيج الشعري وترابط العبارات ومنطق الكلمات يختلف عما عرفناه في اغنيات الاذاعة والسينما « المتطورة » اذ ان الحجاوي ، بعد سنوات من معايشة التراث الشعبي في الارياف ، استطاع ان يؤلف اناشيده حسب النسيج الشعري ذاته الذي كان الشعب منذ الاف السنين ينسج عليه الموال والملاحم والصور الغنائية الاخرى .

وعلى سخاء انتاج الحجاوي ، فقد استطاع ان يبتكر فنا شعبيا بسيطا في شكله ، لكنه عميق وهام في موضوعه ، وتقدمي في محتواه واهدافه ، وباعث للهمم والفعاليات في توجيهه ، وايجابي متفائل في كل ما يقول.. على عكس المحتوى الحزين البائس في التراث القديم .

*

وبعد ، فان قيمة هذه الظاهرة الفنية قد لا تروق للمثقفين الطامحين لرؤية فن شعبي متطور حديث ، اصوله في جذور تراثنا الشعبي ومظاهره في مستوى فرق الفولكلور الاجنبية ، هؤلاء المثقفين الذين لا يزالون ينتظرون لحظة صدور حكم جريء في فن الاخوين رحباني الفولكلوري ، وفي محاولات فرقة رضا وفرقة ليل يا عين القاهريتين وامثالهما من المحاولات المماثلة الاخرى ... وانما قيمة ظاهرة فن الحجاوي ان هذا الرجل الذي جمع بين ضلوعه ثروة هائلة من فولكلورنا الغنائي حيا عفويا ، استطاع ان يعطي صورا منظمة عن هذا الفن ، صادقة وسوية بحيث تصلح لان تدرس وتصبح الحاضنة الخصبة الاولى التي ينطلق منها كل فنان عربي حديث يطمح الى تطوير فولكلورنا الغنائي عن وعي وفهم، بعيدا عن خطر الانحراف والتزويق والاقتباس الصبياني .

هذا اولا : تجميع ثروتنا الفولكلورية والحفاظ عليها وتسهيل عرضها للمختصين بصدق وموضوعية دقيقة .

ثانيا ، ان الحجاوي ، باستخدامه الصور الفولكلورية الدارجة في عمليات تطهير النفوس المنخورة وبعث المواطن ، ابن الريف ، والسمو الى مستوى مواطن الجمهورية العربية المتحدة ، انما يحقق للمرة الاولى عملا ضخما جليلا عجزت عنه المدارس والصحف والاذاعة ووسائل التبشير الاخرى ، وهو ، بعد ، عمل لم يفتك بالفولكلور وانما زاد في غناه وتفتحه(*).

شريف الراس

(*) الصور المرفقة رسمها كاتب المقال .

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣